بريد الجمعة

ثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجُمعَة ٢ يونيو ٢٠٠٠

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

الستائر المسدلة !

أكتب إليك لأستشيرك فى أمر يشغلنى ويملك علىّ كل فكرى.. فأنا سيدة فى السادسة والأربعين من عمرى مازلت أحتفظ بقدر كبير من جمالى ورشاقتى، كما أن شخصيتى اجتماعية ومحبوبة من الآخرين.. ولقد تزوجت منذ ٢٢ عاما من إنسان تعرفت عليه فى نطاق الأسرة واعجبتنى شخصيته وأحببته.. وأحبنى، وتعاونا على إقامة عشنا المشترك.. ووقفت وراءه فى كل خطوة حققها فى حياته العملية.. وانجبنا بعد الزواج ابنتين وولدا.. وتخليت عن طموحى المهنى من أجله ومن أجل أبنائى، فحصلت على إجازة بدون مرتب بعد الإنجاب لرعاية أطفالى الصغار، وتفرغت لهم ولة، وتفننت فى تجميل بيتنا وحياتنا. بموهبتى التلقائية فى الديكور والتزيين.. وأنفقت كل هبات أبى المالية لى بعد الزواج فى إضافة الجديد من قطع الأثاث.. وتغيير الستائر.. وتركيب الباركيه.. حتى صار بيتى تحفة يفتخر بها زوجى ويدعو رؤساءه فى الشركة التى يعمل بها للعشاء، فيه فى المناسبات وهو يزهو بى وبإجادتى للطهى أمامهم.. وبعد أن استنفدت رصيدى من الإجازة بدون مرتب عدت للعمل فى الهيئة الحكومية التى عينت بها بعد التخرج وعملت بضعة أعوام أخرى.. ثم عدت للتفرغ للأسرة مع بدء ابنتى الكبرى لمرحلة الثانوية العامة.. وبعد نجاحها بتفوق والتحاقها بالكلية التى رغبت فيها عدت للعمل لمدة عام آخر ثم تفرغت مرة ثالثة حين جاء دور الابنة الثانية مع مرحلة الثانوية العامة.. وهكذا وزوجى سعيد بى وبأبنائه وبيته ويشيد بأمومتى وعطائى له ولأبنائى.. فى كل مناسبة.. وحياتنا تمضى سعيدة وزاخرة بالحب والود والصداقة والتفاهم. أما المشاكل العابرة التى لا يخلو منها أى بيت.. فلقد كانت تعبر حياتنا عبورا سريعا لا يترك إية مرارة تؤثر على علاقتنا الحميمة.. وحافظنا دائما على علاقة المودة والحب والرحمة التى تجمع بيننا، ومنذ بضع سنوات رحل أبى عن الحياة يرحمه الله وهو راض عنى وعن زوجى ويوصينى به ويوصيه بى، وورثت عنه مبلغا من المال وضعته فى وديعة بالبنك.. واستفدت بعائدها السنوى فى التوسعة على أبنائى ونفسى وزوجى، وأصبحت أمى بعد رحيل أبى لا تجد راحتها إلا فى بيتى.. بالرغم من إلحاح أخوتى عليها لاستضافتها عندهم.. فكانت تتنقل بين بيتها وبيوتهم.. وتستقر عندى لفترات أطول لحبها لى ولزوجى وأبنائى.. وفى غمرة سعادتنا بحياتنا وأسرتنا مرض زوجى فجأة مرضا شديدا.. وتدهورت حالته الصحية خلال وقت قصير.. وأنا لا أكاد أستوعب حقيقة مايجرى أمامى.. وتركت أبنائى فى رعاية أمى وانشغلت كلية برعاية زوجى والتنقل معه بين الأطباء.. ودخول المستشفى من حين لآخر، وأوفدته الشركة الكبرى التى يعمل بها للعلاج فى الخارج ولم يكن فى قرار سفره بند لمرافق لأن طبيب الشركة يسافر مع مرضاها المحتاجين للعلاج فى الخارج، فاقتطعت من وديعتى بالبنك مبلغا كبيرا وسافرت معه، وأمضيت بالغربة شهرين كاملين تلقى خلالهما العلاج المكثف فى أحد المراكز المتخصصة، ولاحت بشائر الأمل فى تحسن حالته ورجعنا ونحن نتعلق بالأمل فى الشفاء فلم تمض أسابيع حتى كان الداء، قد هزمه.. ورحل عن الحياة وتركنا وأحسست بعد رحيله بأننى فقدت الأمان.. والإحساس بطعم الحياة.. واستسلمت للحزن والاكتئاب . وخيم الصمت والظلام والكآبة على حياتنا، وأسدلت ستائر المسكن الجميل الذى أنشأه معا قطعة قطعة على النوافذ وأبواب الشرفات كأننى لا أطيق أن يتسلل ضوء النهار إلى البيت الحزين.. ورفعت فيشة أجهزة التليفزيون فى غرفة المعيشة وغرف النوم.. وغطيتها كلها بقطع من القماش. وحرمت على نفسى وأبنائى سماع الموسيقى والغناء من الراديو او أجهزة التسجيل بالرغم من أشفاقى عليهم من حزنهم وافتقادهم لأبيهم الحنون طيب القلب الذى كثيرا ماغبطت نفسى عليه وشكرت الله كثيرا أن أنعم به وبأبنائى على ودعوت له ولهم كل يوم أن يحفظهم ريهم من كل سوء، وواصلت الاستسلام لنوبات البكاء، وامى تلومنى على استغراقى فى الحزن والكآبة.. وتطلب منى التخفيف عن نفسى وعن أبنائى وفتح نوافذ المسكن ومساعدة أبنائى على تجاوز المحنة والخروج من البيت.. وقطع الإجازة والعودة للعمل لكى يشغلنى عن أحزانى.. ومضت أسابيع ونحن على هذه الحال.. ثم بدأت أسمع غمغمة وكلاما مبهما ممن حولى.. وتكرر الكلام الغامض دون أن أفهمه.. إلى أن تخلص الأهل من الحرج وقالوها لى صريحة.. وهى أن زوجى الحبيب الراحل الذى كان بالنسبة لى ككتاب مفتوح قرأت كل صفحاته، كان متزوجا زواجا عرفيا موثقا لدى المحامى من أرملة لها أبناء وتتقاضى معاشا عن زوجها الراحل ولولا ذلك لتزوجها زواجا رسميا وأن هذا الزواج السرى تم منذ سبع سنوات وظل مستمرا حتى اللحظة الأخيرة دون أن أدرى وقد تكشف لهم أمره بعد رحيله عن الحياة بأيام قليلة وصدمت فى وفاء زوجى لى صدمة أذهلتنى عن صدمة فقدى إياه وتملكنى الذهول فترة طويلة.. وفقدت الثقة فى نفسى وفى الحب والإخلاص والوفاء، وكل القيم المثالية، وتعجبت كيف تزوج هذه السيدة.. ولماذا.. ومتى تعرف بها.. وأين.. وكيف لم الحظ عليه شيئا خلال سبع سنوات وبعد فترة الذهول الأولى، فوجئت ببركان من الغضب ينفجر داخلى ونهضت من نومى المتقطع فى الصباح ذات يوم فوجدتنى أفتح الستائر المسدلة فى كل نوافذ البيت.. ليدخل ضوء الشمس إلى المكان.. وأرفع الغطاء عن أجهزة التليفزيون.. وافتحها كلها وأخلع الملابس السوداء وأرتدى الملابس الرمادية والزرقاء.. وأطلب من البنتين أن تخلعا ملابس الحداد وترتديا ماتشاءان من الملابس الملونة ماعدا الحمراء، منها وتتساءل الابنتان عن السبب فى هذا الانقلاب فأشفق عليهما من الإجابة وأغير الموضوع.. وأتحمل نظرات اللوم فى عينيهما، حين أخرج فى زيارات عائلية أو إلى الأسواق وأدعوهما للخروج معى للترويح عن نفسيهما. وبالرغم من كل ما أحسست به من غيظ وقهر حين عرفت بأمر الزوجة السرية لزوجى فلم أصارحهما بعد بسبب تغيرى.. وخلعى للملابس الحداد.. أما حيرة ابنى الصغير لما طرأ على من تغيرات فلقد فسرتها له بأننى أريد مساعدتهم بذلك على عدم الاستسلام للحزن حتى لا تتأثر صحتهم ودراستهم..

وفى بعض الأحيان استريح لما فعلت.. ولالتزامى الصمت مع أبنائى بشأن أبيهم .. وفى بعض الأحيان يتسلكنى السخط والغيظ فأعتزم مصارحتهم بالسبب الحقيقى.

وإنى أسألك ياسيدى كيف يأمن المرء للآخرين إذا كان أقرب الناس إليه قد تكشف له فى النهاية عن شخص آخر له حياة سرية استمرت سبع سنوات دون أن أدرى عنها شيئا. وبماذا تنصحنى أن أفعل مع أبنائى.. هل أصارحهم بهذه الحياة السرية لأبيهم.. وبسخطى الهائل عليه بسببها أم أدعهم فى أحزانهم على الأب المثالى الذى يفتقدون حنانه ورعايته وطيبته ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ذكرتنى رسالتك بقصة شهيرة للأديب الفرنسى جى. دى موباسان بعنوان «الجواهر» روى فيها قصة فتاة شابة جميلة كالملائكة ذات خفر وحياء ووداعة.. تزوجت من موظف بوزارة الداخلية فسعد بها وسعدت به، وكانت مثالا للاخلاص والوفاء والطهر.. وتفننت فى إرضاء زوجها.. وفى تدبير معيشتهما بمرتبه المحدود بلا شكوى ولا أنين.. ولم يكن يعيبها فى نظره سوى شبثين هامشيين هما ولعها الغريب بمشاهدة المسرح.. وولعها الأغرب بارتداء الجواهر المقلدة رخيصة الثمن لتكمل بها زينتها البسيطة.. ولقد كان يتجاوز عن هواية الجواهر المزيفة ويشفق عليها من فقره وعجزه عن أن يهديها ذات يوم قطعة جواهر حقيقية.. لكنها سعيدة بحياتها وراضية عنها ولا تشكو شيئا، ثم رجعت من المسرح ذات ليلة مصابة بالتهاب رئوى من أثر البرد القارس، واشتد بها المرض خلال فترة قصيرة حتى اودى بحياتها، فكاد زوجها يهلك حزنا عليها وافتقد برحيلها عن الحياة أنس عشرتها الطيبة له وإخلاصها ووفاءها وأخلاقها الملائكية، وازداد افتقاده إياها حين عجز عن أن يدبر شئون حياته بمرتبه المحدود، وتعجب كيف كانت تتفنن فى تدبير أمور حياتهما معا بهذا المرتب نفسه. واشتدت أزمته المالية ذات يوم ورأى امامه صندوق مجوهراتها المزيفة الذى كان يطلق عليه مازحا صندوق الخردة، فقرر أن يبيع عقدا منه لعله يأتيه ببضعة قروش تعينه على امره، وتوجه إلى أحد محلات الجواهر وعرض العقد الزائف على صاحبه على استحياء فإذا به يكتشف أنه من اللؤلؤ الحقيقى وباهظ القيمة.. وإذا به يكتشف بعد ذلك ان صندوق الخردة الذى خلفته وراءها زوجته بضم ثروة ثمينة من الجواهر الحقيقية أهداها إليها عشاقها خلال السنوات التى عاشتها معه.. ويكتشف أنه كانت لها حياة سرية مؤسفة لم يكن يدرى عنها شيئا ولم تتكشف له أية إشارة إليها إلا بعد رحيلها المفاجىء عن الحياة، والدرس الذى ينبغى لنا أن نستخلصه من رسالتك ومن هذه القصة ومثيلاتها فى الحياة هو انه ليست هناك حياة سرية يمكن أن تبقى طى الكتمان إلى ما لا نهاية. وأنه من الحكمة أن تخلو حياة المرء الخاصة مما يسوؤه ان يعرفه عنه الآخرون فى حياته أو بعد رحيله عن الدنيا.. إذا كان حقا ممن يحرصون على احترامهم لانفسهم واحترام الآخرين لهم فى الحياة.. ولذكراهم بعد رحيلهم عنها.

والكارثة هى أن بعض البشر لا يتصورون ان طائر الموت يمكن أن يحل فوق رؤوسهم فجاة.. فيهتك كل الأستار ويذيع كل ما أجهدوا انفسهم فى تكتمه وإخفائه من أسرار شخصية، مع أن كل الأسرار لابد أن تتكشف بعد حين.

وقديما قال الشاعر العربى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

غير أننى أقول لك بعد ذلك إن النبلاء من البشر هم الذين إذا اساء إليهم أحد تجاوزوا عن إساءته واستهدوا فى ذلك بمضمون الحديث الشريف الذى يقول لنا: «تجافوا عن عثرات الكريم»، او سخطوا عليه إن عز عليهم الصفح. ولكن بغير أن يجرفهم السخط إلى هاوية الرغبة فى الانتقام منه وبغير أن يدعوا مظلة سخطهم عليه إلى الآخرين الذين لم يسىء إليهم إساءة مباشرة، وبطالبونهم بالانضمام إليهم فى موقفهم منه.. أو يعمدون إلى تشويه صورته او ذكراه فى نفوسهم.

والزواج السرى او الحياة السرية لزوجك التى طالت سبع سنوات ولم تكتشفى وجودها إلا بعد رحيله عن الحياة خطأ كبير ارتكبه زوجك فى حق الوفاء لك بغير جدال، ومن حقك بكل تاكيد أن تغضبى له.. وتشعرى بالسخط على مرتكبه بل وأن تهتز ثقتك لبعض الوقت فى قيم الحب والوفاء والإخلاص والعشرة الزوجية.

لكن مالبس من حقك هو أن تسحبى غضبك لكرامتك الشخصية من زوجك الراحل على ذكراه فى قلوب أبنائه وصورته المثالية كاب عطوف وحنون لهم فى مخيلتهم، ولو فعلت ذلك استجابة لنوازع السخط والرغبة فى الانتقام منه بالثر رجعى.. فإنك ترتكبين بذلك خطأ أكثر فداحة فى حق أبنائك ومعنوياتهم ومثلهم العليا فى الحياة، فالأبناء باسيدتى لا يسعدون باهتزاز رمز الأب فى مخيلتهم.. ولا بالإساءة إلى ذكراه.. مهما يكن رأى الغير فيه . ولقد خسر الأبناء بفقد أبيهم خسارة إنسانية كبرى مهما يكن من أمره معك.. وليس من الرحمة بهم أن تضاعفى من أحزانهم على فقد أبيهم بتجريح ذكراه أو الإساءة إليه أو التشكيك فى جدارته بالحزن عليه . فاغفرى له إن شئت ماكان من أمره بعد أن أصبح بين يدى مولاه، أو اسخطى عليه كما تشائين إذا عجزت عن الصفح الآن، ولكن لا تصدمى أبناءك فى أبيهم، ولا تهزى مثاله الطيب فى نفوسهم وتحفظى فى «تحررك» من الحداد عليه أمامهم على الأقل لكيلا تجرحى مشاعرهم وتزيدى من أحزانهم وحيرتهم أمام حقائق الحياة المؤلمة..

فالحق أنه لا شىء يجرح قلب المحزون أكثر من أن يستشعر استهانة الغير باحزانه أو عدم احترامهم لذكرى الراحل الذى يحزن عليه، خاصة إذا كان هذا الغير هو أقرب الناس إليه وأجدرهم بمشاركتك فى أحزانه على من فقده.

ولقد يكون من الأوفق لك أن ترجعى إلى عملك الآن لكى يشغلك عن أفكارك وهواجسك.. ورغبتك المؤرقة فى الانتقام لنفسك من الطعنة الغادرة التى تلقيتها فى وفاء زوجك لك.